مجلة الفقه والقانون
www.majalah.new.ma
تاريخ النشر : 01 دجنبر 2012
العـدد الثاني : دجنبر 2012
المدير المسؤول : الدكتـــور صلاح الدين دكداك

الإسلام ودعوته للتعايش مع الآخـر

الدكتـور : محمد ديرا باحث في تـاريخ الأديان والفكر الإسلامي -المملكة المـغربية-

"المشكلة المهمة بالنسبة للغرب ليست الأصولية الإسلامية بل الإسلام، فهو حضارة مختلفة، شعبها مقتنع بتفوق ثقافته، وهاجسُه ضآلة قوته.. المشكلة المهمة بالنسبة للإسلام ليست المخابرات المركزية ولا وزارة الدفاع، المشكلة هي الغرب، حضارة مختلفة، شعبها مقتنع بعالمية ثقافته، ويعتقد أن قوته المتفوقة إذا كانت متدهورة فإنها تفرض عليه التزاما بنشر هذه الثقافة في العالم، هذه هي المكونات الأساسية التي تغذي الصراع بين الإسلام والغرب"[1].

[1] - صمويل هنتجتون، صدام الحضارات: إعادة صنع النظام العالمي الجديد، ترجمة طلعت الشايب، ط2،1999، ص: 352.

www.majalah.new.ma مجلة الفقه والقانون

إذا كانت هذه بعض المبررات التي جعلت المفكر الأمريكي الراحل[2] صمويل هنتجتون يرشح الإسلام كمركز للصدام مع الغرب[3]، فإن هناك أسبابا أخرى ظل يروج لها أصحاب نظرية "الصدام الحضاري" ومنها أن الإسلام ينفي الآخر ويرفض التعايش معه، لكن بتأملنا في أحكام الإسلام وتعاليمه الصحيحة سنجد أن في ذلك تَجَنٍّ واضح على الإسلام، فالذين "يصمونه بتلك الصفات السلبية التي لا تسمح بالتعايش السلمي مع الآخرين لا يعرفون الإسلام في عقيدته وشريعته وأخلاقه وغير ذلك من الجوانب التي تطبعها "السماحة" في أجلى وأسمى معانيها"[4].

ولعل أبرز ما يمكن أن نستدل به على عمق مبدأ التعايش في الإسلام ما جاء في قوله تعالى: "قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى **كلمة سواء** بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا"[5]، فهذا النداء هو أول نداء للتعايش بين الأديان والمجتمعات، بل إن الإسلام ذهب إلى أبعد من ذلك حين دعا الناس جميعا وبشكل صريح إلى التعارف المفضي إلى التعايش والتعاون، قال عز وجل: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم **شعوبا وقبائل لتعارفوا**"[6]، فهذه الآية الكريمة تعد أساس التعاون الإنساني بين بني البشر، إذ تقر التعدد "شعوب، قبائل"، وتدعو إلى التعارف الذي يشمل التعاون بين الناس جميعا وفي مختلف المجالات، حتى إن الخطاب الإلهي الشامل في هذه الآية يمكن أن يعتبر **الفصل في العلاقة بين المسلمين وغيرهم سواء كانوا أهل كتاب أم غير ذلك ما لم يبادروا بظلم أو عدوان.**

www.majalat-new.ma مجلة النقد والتنوير

---

2 – توفي نهاية شهر دجنبر 2008 دون أن يُحدث رحيله ضجيجا كما فعلت أطروحته "صدام الحضارات".

3– يأتي ذلك في إطار البحث الدائم للغرب عن عدو، فبعد انهيار المعسكر الشيوعي بدأ الغرب يبحث عن القوى الصاعدة لوقف زحفها وتأثيرها، وهكذا وجه مواقفه العدائية ضد الإسلام والمسلمين وقضاياهم، وسعى جاهدا لإلصاق تهم التشدد والتطرف والتعصب به وبمعتنقيه.

4 – حسن عزوزي، الإسلام والحضارة الغربية المعاصرة: وهم الصدام وحتمية الحوار، الطبعة الأولى، 2003، ص:89.

5 – آل عمران: 63.

6 – الحجرات: 13

كما نجد أن الإسلام أكد على وحدة الأصل، فالناس جميعا من أصل واحد هو آدم عليه السلام، يقول تعالى: "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي **خلقكم من نفس واحدة**" [7]، وبمقتضى هذه الوحدة كانت الضرورة ملحة لأن تتعارف الفروع وتتعاون وتتآخى في ظل وحدة إنسانية جامعة.

شواهد تاريخية على عمق مبدأ التعايش في الإسلام.

هناك شواهد عديدة تدل على أن الإسلام دعا معتنقيه إلى التعايش مع الآخر من بني الإنسان عامة دون نفي أو إقصاء، ومن ذلك ما يلي:

1- وثيقة المدينة[8]:

بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة كان همه الكبير "أن يصل بيثرب موطنه الجديد إلى وحدة سياسية ونظامية لم تكن معروفة من قبل في سائر أنحاء الحجاز"[9]، وبما أن المدينة المنورة كانت متنوعة الأديان والأعراق فقد بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم في تنظيم العلاقة مع الآخر سواء كان يهوديا أم وثنيا، وهكذا وضع عليه الصلاة والسلام لتحقيق هذا الهدف دستورا سماه "الصحيفة" كان من أبرز بنودها ما يلي:

" ...وأَنَّ **يهود بني عوف أمة مع المومنين، لليهود**[10] **دينهم وللمسلمين دينهم**، مَوَاليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ[11] إلا نفسه وأهل بيته... وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم... وأن النصر للمظلوم... وأن يثرب حرام[12] جوفها لأهل هذه الصحيفة...".

---

7 - النساء: 1

8- سماها الرسول صلى الله عليه وسلم بـــ "الصحيفة" لكن تُعرف أيضا بـــ "وثيقة المدينة" و "دستور المدينة"، وتعد أول دستور مكتوب يحدد علاقات المسلمين ببعضهم وعلاقاتهم بغيرهم. 8

9 - محمد حسين هيكل، حياة محمد صلى الله عليه وسلم، دار المعارف، 1981، ص: 236.

10- كانت قلعة اليهود الأساسية هي يثرب (المدينة فيما بعد) وكانوا قد قدموا إلى الجزيرة العربية من الشام هربا من ظلم الرومان والبيزنطيين، وكانت قبائلهم التي استقرت في يثرب وشكلت نصف سكانها تقريبا هي بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة.

11 - يهلك

12 - أي أن المدينة أصبحت بموجب هذه الوثيقة حرما آمنا يتعايش فيه الجميع دون استثناء مسلمين ويهودا ووثنيين.

www.majalat-new.ma مجلة الفقه والقانون

بهذا الوضوح إذن في التعامل مع الآخر المخالف أقرت وثيقة المدينة التي وضعها الرسول صلى الله عليه وسلم منذ أربعة عشر قرنا حرية العقيدة، وحرية الرأي، وحرمة المدينة لجميع مكوناتها، كما نقلت أهل المدينة من أجواء الحقد والعنصرية والعصبية القبلية إلى أجواء الاحترام المتبادل، والتسامح الديني، والتعايش السلمي، والتعاون، والمساواة بين أبناء الوطن الواحد، وذلك حتى مع الوثنيين، يقول الدكتور عبد الهادي بوطالب: "إن الإسلام وديانتيْ أهل الكتاب جاءت لمناهضة الشرك والقضاء عليه، ولكن مع ذلك استثنى الإسلام من أهل الشرك من سالموه منهم، ومَنْ بينه وبينهم عهد وميثاق للسلم والتعايش... وقد كان مشركو المدينة طرفا أصيلا في التعايش الذي ضبط مقتضياته "الدستور"[13]، ومنهم تألفت جميعا أمة يثرب نواة الإمبراطورية الإسلامية العظمى"[14].

وإذا كانت وثيقة المدينة تنص على أن اليهود أمة **مع** المومنين وليسوا أمة **من** المومنين[15]، بما يعني أنهم أمة مستقلة إلى جانب المسلمين، وإذا كان لكل فريق حق الاعتقاد وكافة الحقوق المدنية إلا ما يهدد سلامة الدولة أو يفرق وحدتها، وإذا كان الظالم في هذه الدولة معرضا للعقاب أيا كان، **سواء كان مسلما أم غير مسلم** وذلك من خلال أداة العموم (مَنْ): "**إلا مَنْ** ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه..."، فهل بعد ذلك يحق لأحد أن يتحدث عن نفي الإسلام للآخر ورفضه التعايش معه؟!.

أما ما حصل بعد ذلك لليهود من إيقاع العقوبة عليهم وإجلائهم عن المدينة المنورة فقد كان بسبب مخالفتهم للوثيقة بعد أن صدمتهم نتيجة معركة بدر، فبدؤوا في ترويج الشائعات ضد الدولة التي كانوا يعيشون فيها جنبا إلى جنب مع المسلمين متساوين في الحقوق والواجبات، وشنوا حربا نفسية ضد قائدها صلى الله عليه وسلم، ومارسوا التجسس لصالح المشركين المعادين للدولة والمتربصين بها، بل تلقوا رسالة من قريش تحرضهم فيها على قتال النبي صلى الله عليه وسلم

---

13 – يقصد دستور المدينة.

14 – عبد الهادي بوطالب، عالمية الإسلام ونداؤه للسلام، الإسلام اليوم، ع19، 2002، بتصرف يسير جدا،ص: 46-47.

15– هناك من فسر بند "اليهود أمة مع المومنين" بأن سكان المدينة كلهم من مسلمين ويهود يشكلون أمة واحدة، ظنا منهم بأن ذلك أدعى لتقرير المساواة، إلا أن ذلك لا يحقق المساواة المقصودة في الوثيقة، فاعتبار اليهود جزءا من المسلمين فيه تذويب لكيانهم داخل الأمة الإسلامية، في حين أن اعتبارهم أمة مستقلة داخل الدولة الإسلامية فيه إقرار لشخصيتهم المستقلة عن المسلمين، وفي ذلك تأكيد لمساواة المسلمين مع غيرهم في الواجبات والحقوق، ويتضح ذلك أكثر في البنود الأخرى من الوثيقة. انظر للمزيد من التفصيل الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، الإسلام والغرب، ص: 132-133.

www.maalamnews.ma مجلة الفقه والقانون

وصحابته، ونتيجة لهذه الجرائم التي تمس أمن الدولة وسلامتها قام النبي صلى الله عليه وسلم بإبعادهم وإجلائهم عن المدينة حماية لها ولوحدتها.

وما يدل أيضا على أن النبي صلى الله عليه وسلم أَجْلاهم لاعتبارات سياسية وأمنية وليس لاعتبارات دينية أو عَقَدية تلك الوقائع التاريخية العديدة التي تبين أن علاقة النبي صلى الله عليه وسلم استمرت مع اليهود الغير متورطين في قضايا أمنية، ومنها أنه عليه الصلاة والسلام توفي وذرعه مرهونة عند يهودي.

2- وثيقة نصارى نجران:

عرف التاريخ وثيقة أخرى غير وثيقة المدينة كانت خاصة بالعلاقة مع الآخر النصراني، وقد وضعها الرسول صلى الله عليه وسلم لوفد نصارى نجران الذين أتوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم في السنة التاسعة للهجرة يحاجون في عيسى عليه السلام ويزعمون ألوهيته فيما عُرف باسم "المباهلة"، فحاورهم النبي صلى الله عليه وسلم وجادلهم طويلا، وسمح لهم بالصلاة في مسجده في صورة مشرقة من السماحة واليسر، لتنتهي هذه الواقعة بعهد وضعه لهم ومن خلاله للنصارى في كل مكان.

ومما جاء في هذا العهد مما يدل على احترام الآخر والاعتراف به ما يلي: "لِنجران وحاشيتها وسائر من ينتحل دين النصرانية في أقطار الأرض جوار الله وذمة رسول الله على أموالهم، وأنفسهم، وملتهم، وغائبهم وشاهدهم، وعشيرتهم، وبِيَعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير..."[16].

وهكذا نجد أن هذه الوثيقة دليل آخر على اعتراف الإسلام بالآخر المُخالف والقبول به والتعايش معه.

3- العهدة العمرية:

بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم صار الصحابة رضي الله عنهم على منهاجه وهديه، وهكذا نجد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب لأهل إيلياء[17] عندما فتحها المسلمون سنة

16- انظر أبو يوسف، كتاب الخراج ص: 86، وقد ذكرها أيضا محمد حميد الله في كتابه: "مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة"، دار النفائس، بيروت، ط4، 1403هـ.

17 – القدس.

638م كتابا أمَّنهم فيه على كنائسهم وممتلكاتهم، وقد اعتُبرت هذه الوثيقة إحدى أهم الوثائق في تاريخ علاقة المسلمين بغيرهم، ومن نصوصها ما يلي:

"هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المومنين أهل إيلياء من الأمان.. أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم.. وأنه لا تُسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا يُنقص منها ولا من حَيِّزِها[18]، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم..."[19].

هذه بعض البنود الهامة في الوثيقة التي شهد عليها كبار الصحابة من بينهم خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما، على أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قام بذلك فهو لم يفعله بحكم سياسته الرشيدة وإدارته الحكيمة، بل كان في ذلك مُطبقا لتعاليم الإسلام منفذا لأحكامه التي استقاها من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

من خلال هذه النماذج وغيرها يتضح أن الإسلام بأحكامه وتعاليمه كفل للآخر غير المسلم حقه في الحياة، وحقه في العقيدة، كما حفظ له كرامته وإنسانيته وحريته، بل نجده لم يغير موقفه من الآخر رغم حالة العداء التي قوبل بها من يهود المدينة ومن جيوش الروم المسيحية ومن والاها من نصارى الشام.

وللمزيد من التأكيد على ذلك أورد هنا بعض الأحكام التي يتساوى فيها المسلم مع الآخر اليهودي أو النصراني داخل المجتمع الإسلامي:

1- المساواة في القصاص، فلا فرق بين المسلم والكِتابي، ويبقى أشهر مثال على ذلك ما فعله الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين مكن القبطي من القصاص من ابن عمرو بن العاص[20] قائلا قولته الشهيرة: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟".

2- أبيح للذِمِّي داخل المجتمع الإسلامي كل زواج يقره دينه وإن خالف الإسلام، وأبيح له كل طلاق وإن لم يتفق مع الإسلام، وهذا ما يضرب بعرض الحائط ما يقال عن إجبار الإسلام للآخر

18- مساحتها.

19- تاريخ الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1407هـ، 436/4.

20- كان عمرو بن العاص حينها واليا على مصر ورغم ذلك لم يشفع له "منصبه" في الإفلات من العقاب، فالجميع متساوٍ أمام القانون في دولة الإسلام.

www.majalah.new.ma مجلة الفقه والقانون

للعمل بقوانينه، فالإسلام يحترم خصوصية الآخر حتى في القوانين مما لا تتعارض مع قوانين المجتمع الإسلامي.

3- أباح الإسلام للمسلمين أن يأكلوا من طعام أهل الكتاب وذبائحهم إذا كان المذبوح مما يَحِل أكله للمسلم، كما أحل لأهل الكتاب أن يأكلوا من طعام المسلمين، قال تعالى: "وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم"[21].

4- أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج بالنصرانية أو اليهودية دون إكراهها على الدخول في الإسلام ولها نفس الحقوق التي للمسلمة على الزوج، يقول تعالى: "وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم، والمحصنات من المومنات **والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب** من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان"[22].

5- الحرية الدينية في الإسلام مكفولة للجميع، وقد دعا الإسلام منذ البداية إلى عدم إجبار الآخر على الدخول في الإسلام فقال سبحانه وتعالى: "**لا إكراه في الدين** قد تبين الرشد من الغي"[23]، وقال سبحانه مخاطبا رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم: "ولو شاء ربك لآمن مَن في الأرض كلهم جميعا، **أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مومنين**"24 ، وقال أيضا: "فذكر إنما أنت مذكر **لست عليهم بمصيطر**"25.

6- اعترف الإسلام بالتعدد والتنوع والتمايز فقال سبحانه وتعالى: "لكل جعلنا منكم شِرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن لِيبلوَكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات "[26]، "ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم"[27]، "تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض"[28] ، "ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما

---

[21]- المائدة: 6

[22]- نفسها.

[23]- البقرة: 255

24- يونس: 99

25- الغاشية: 22

[26]- المائدة: 50

[27]- هود: 118

[28]- البقرة: 251

www.maalan news.com

جاءتهم البينات ولكن اختلفوا، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد"[29].

أما عن الهدف من وراء هذا التعدد والتمايز فقد قال سبحانه وتعالى: "ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين"[30]، "ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لَهُدِمت صوامع وبِيَع وصلوات ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز"[31].

7- نهى الإسلام عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، فقال تعالى: "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن"[32]، وإذا رجعنا إلى وثيقة المدينة فسنجدها تجاوزت قضية الجدال لتنص على أن بين جميع المتعاقدين "النصح والنصيحة والبر دون الإثم".

7- حدد الإسلام دستور العلاقة مع الآخر، وذلك في قوله تعالى: "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تَبَرُّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تَوَلَّوْهُمْ ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون"[33]، فالآية فرقت بين المسالمين للمسلمين والمحاربين لهم، فشرعت للمسالمين بِرَّهُم والإقساط إليهم[34]، حتى أن القرآن الكريم اختار للتعامل معهم كلمة "البر"، فقال تعالى: "أن تَبَرُّوهم"، وهي الكلمة نفسها التي استعملها في أعظم حق على الإنسان بعد حق الله تعالى وهو بر الوالدين، أما الذين نهت الآية الكريمة عن موالاتهم فهم الذين عادوا المسلمين وقاتلوهم وأخرجوهم من أوطانهم بغير حق، كما فعلت قريش مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وكما فعل الكيان الصهيوني بأراضي المسلمين في فلسطين.

---

[29]- نفسها.

[30]- نفس السورة: 249

[31]- الحج: 38

[32]- العنكبوت: 46

[33]- الممتحنة: 8-9

37- يعني العدل، والقسط أو العدل: أن تعطي الشخص حقه ولا تنقص منه شيئا، أما البر فهو: أن تزيده على حقه فضلا وإحسانا.

www.malaalnew.ma

من خلال هذه الأحكام وغيرها يتبين أن الإسلام بلغ شأوا بعيدا في تحقيق التعايش السلمي مع الآخر، وهذا دليل على أن المسلمين "بطبيعة دينهم وبتعاليم كتابهم أمة منزهة من الأحقاد الدينية، والتعصبات المذهبية، أليس من المدهش أن نجد في تاريخ الأديان أمة شديدة البطش، قوية السلطان، متماسكة القوى، مغرمة بعقيدتها، تعامل الأمم التي تخالفها في الدين معاملة قصر عنها ورثة الكتب السماوية القديمة وحفظة المدنية الإنسانية العتيقة"[35].

أما بعد!

إن حلف الفضول، وصحيفة المقاطعة في شعب أبي طالب، والهجرة إلى الحبشة، وصلح الحديبية، ووثيقة المدينة، والعهدة العمرية كلها وثائق حددت معالم التعامل والتعايش والشراكة مع الآخر غير المسلم، وكلها تستدعي البحث والاجتهاد والاستنطاق لنبين من خلالها للآخر أن الإسلام لا ينفيه ولا يرفض التعايش معه، ولنستلهم منها نحن في المقابل الدروس والعبر، ونقدم من خلالها مشروعا إنسانيا مشتركا يكون بديلا لعالم اليوم، وينطلق بنا نحو مستقبل يسع الجميع ويسعد فيه الجميع.

www.majalah.new.ma مجلة الفقه والقانون

مجلة الفقه والقانون
www.majalah.new.ma
تاريخ النشر : 01 دجنبر 2012
العـدد الثاني : دجنبر 2012
المدير المسؤول : الدكتـــور صلاح الدين دكداك

[35]- محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، دار المعرفة، 1971، 288/1